مدينة بغداد المدورة - تخطيطها وتحصيناتها

عند التفكير ببناء اية عاصمة او مدينة كان على البانى ان يضع نصب عينيه عدة امور قبل المباشرة بالتنفيذ وفي المقام الاول منها واهمها حصانة الموقع لتكون بمنأى عن الاخطار الخارجية التي قد تهددها ثم التفكير بتخطيطها وما يمكن ان يبنى من تحصينات تحميها من العدو وتمنعه من دخولها.

وعندما قرر المنصور تنفيذ رغبته ببناء عاصمته الجديدة سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢م ارتأى ان تكون قريبة من انصاره ومؤيديه، صحيحة الهواء قريبة من الماء والكلأ حصينة في موقعها وفي تخطيطها وهي المواصفات الرئيسة التي سار عليها الخلفاء والولاة عند بناء اية مدينة جديدة.

وبعد ان استقر رأي ابي جعفر المنصور على الموقع الصالح لمدينة بغداد والذي قال عنه بأنه «موضع معسكر صالح» اختار المهندسين والمخططين لتنفيذ المشروع ومثل «لهم صفتها التي في نفسه» ومن الذين اشرفوا على تخطيطها وبنائها الحجاج بن ارطاة وعبد الله بن محرز وعمران بن الوضاح وشهاب بن كثير وابو حنيفة النعمان بن ثابت الذي تولى ضرب اللبن وعده بالقصب. وكان ربائح البناء يتولى بناء سور المدينة.

ولو تفحصنا تخطيط هذه المدينة بغض النظر عما كان يحيط بها من تحصينات طبيعية كالجداول والانهار وعوائق اخرى كالارياض المحيطة بها وغيرها لاستنتجنا ان المخطط قد وضع عصارة فكر الخليفة وذكائه ليحصن المدينة ضد من يفكر في اقتحامها والنيل منها الامر الذي يبرهن على براعة المهندس العربي وعلى درايته وسعة ادراكه وحسن تدبيره.

بنيت المدينة دائرية الشكل «وذلك ان المربعة اذا كان الملك في وسطها كان بعضها اقرب اليه من بعض والمدور من حيث قسم كان مستوياً لا يزيد هذا على هذا ولا هذا على هذا».

والشكل المدور بحد ذاته فيه اقتصاد في المواد البنائية ويوحي بانه قلعة حصينة يسهل الدفاع عنها اكثر من الاشكال الاخرى ذات الزوايا التي تحجب مدى الرؤيا عن المدافعين وهذا الشكل من القلاع اصيل في العراق نلاحظه على المنحوتات وفي التحصينات الاشورية المختلفة وكذلك في تخطيط مدينة الحضر المشهورة في شمال العراق كما عرف هذا الشكل في اقطار اخرى. إلا ان كل الدلائل تشير الى ان بغداد لم تتأثر بأي منها وان المنصور هو الذي املى على المهندسين شكلها «فخط المدينة وقدر البناء» حتى قيل انه «لا تعرف في اقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سواها» والتي قال عنها رسول ملك الروم للمنصور «أنك بنيت بناءاً لم يبنه احد كان قبلك».

اما السور الثاني (السور الاعظم) فهو اكثر سعة وارتفاعاً من السور الاول. وهذا التفاوت في الارتفاع بين السورين له فائدة دفاعية رائدة في حالات الحرب اذ يستطيع المدافعون القائمون على السور الثاني من مراقبة تحركات الاعداء المهاجمين خلف السور الاول والخندق كما ان ارتفاع السور الثاني يسهل توجيه القذائف الى صدور العدو والمهاجمين. وهذا السور هو الحصن الدفاعي الرئيس في المدينة واقواها فهو مبني بالاجر والجص عريض في الاسفل ومدعم بـ ١١٣ برجاً دفاعياً وزعت ٢٨ برجاً بين كل بابين إلا ما بين بابي الكوفة والبصرة فقد وضع ٢٩ برجاً وهذه الابراج ذات صفة دفاعية خاصة فارتفاعها يزيد على ارتفاع السور بخمسة اذرع ويرجح انها كانت مزودة بمزاغل دفاعية تساعد على اصابة العدو وفي نفس الوقت فيها حجرات تحمي المدافعين من سهام المهاجمين واسلحتهم. ويتوج السور الثاني وابراجه شرف (وهي عناصر معمارية زخرفية تعلو جدران الاسوار والقلاع وغيرها وتعتبر نهاية جميلة لهذه الجدران ويطلق عليها البعض اسم عرائس السماء).

اما المداخل المفتوحة في السور الثاني فهي اربعة ايضاً تتناظر مع مداخل السورين الاول والثالث ويقابل كلاً منها احد ابواب قصر الخليفة الواقع في الرحبة العظمى. وفوق كل من ابواب السور غرفة يؤدي اليها مصعد عليه ابواب تغلق وتعلوها قبة عظيمة مزخرفة ومذهبة من الداخل ارتفاعها خمسون ذراعاً حولها مجالس ومرتفقات ويعلوها تمثال يدور مع الريح ويختلف عن التماثيل المنصوبة فوق الابواب الاخرى. وربما كان لهذه الغرف مزاغل عمودية تواجه المداخل في السور الاول من الداخل وكذلك مزاغل افقية فوق دهاليز هذه المداخل شبيهة بالمزاغل القائمة فوق مداخل قصر الاخيضر. وكانت هذه القباب مجالس المنصور اذا احب النظر الى اي من جهات المدينة الاربع (شكل ٣٨).

«وعلى كل من ابواب المدينة الاوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان» «ولا يغلق الباب الواحد منها ولا يفتحه إلا جماعة رجال». وقد جلب خمس من هذه الابواب من مدينة واسط وجيئ بباب واحد من الشام ليوضع على باب خراسان كما وضع على باب الكوفة الخارج باب جيئ به من الكوفة من عمل خالد القسري وعمل المنصور باباً ليوضع على باب الشام وكان اضعفها.

وتؤدي المداخل في السور الثاني الى رحبات مربعة ابعادها (٢٠ × ٢٠ ذراعاً) الى يمين ويسار كل منها فصيل ثان عرضه ٢٥ ذراعاً يدور حول السور الثاني من الداخل وتؤدي هذه الرحبة في الجهة المقابلة منها الى ممر ذو طاقات عددها ثلاثة وخمسون

مرمى اسلحتهم كما ان الداخل في مثل هذه الممرات لا ينساب بنفس سرعة الداخل إلى الممرات المستقيمة التي توفر انسيابية سريعة كما انها تحول دون استخدام الباب عند الوصول اليه لتصويب القذائف الى الافنية الداخلية. وهذا النوع من تخطيط المداخل عربي عراقي اصيل اتبع في مدينة الحضر وفي الحصون الاشورية قبل بناء بغداد بعدة قرون واستمر بناؤه بعد ذلك في التحصينات ومداخل الاسوار والقلاع ولا زال قائماً في بغداد في باب الطلسم (الوسطاني) - احد ابواب سور بغداد الشرقية - كما تأثر بتخطيطه الصليبيون الذين نقلوه الى قلاعهم وحصونهم التي بنوها في الشرق ثم في اوربا بعد طردهم من الشرق.

والسور الاول سميك في الاسفل ويقل سمكه في الاعلى وبين طبقاته جوائز من قصب بدل الخشب وتدعمه ابراج للتقوية يرجح انها اسطوانية شبيهة بالابراج التي تدعم اسوار ابنية سامراء التي لا تزال قائمة حتى الوقت الحاضر.

ويفصل السور الاول عن السور الثاني فصيل فسيح غير مسكون ولم يبن فيه منازل ليوفر للمدافعين ميداناً مناسباً للمناورة وصد العدو واعاقته وابعاد ناره التي قد يستخدمها ضد سكان المدينة. وتنفتح ابواب السور الاول على هذا الفصيل برحبات مستطيلة الشكل ابعادها (٦٠ × ٤٠ ذراعاً) على كل من جانبيها حائط فيه باب يقفل عند الخطر فينقسم هذا الفصيل الى اربعة اقسام تشتت القوة المهاجمة الواصلة اليه وتقطعها الى اربعة تجاميع يصعب اتصالها مع بعضها فيسهل القضاء عليها.

اضافة الى شكلها الدائري فقد خططت المدينة على شكل حلقات متداخلة معزولة عن بعضها بحيث اذا استطاع العدو ان يخترق احداها واجه موانع اخرى تحول بينه وبين غرضه.

وتتفق معظم المصادر على ان المنصور احاط مدينته بخندق واسوار تحميها من الاخطار في فترة ازداد فيها خطر الاعداء على الدولة العباسية التي لم ترسخ اسسها بعد. والوصف الذي قدمه الخطيب البغدادي ادق واشمل ما قدم عن تخطيط هذه المدينة ونستخلص منه ومن غيره من المؤرخين والجغرافيين ان المدينة الجديدة تتكون من: ١) خندق ومسناة - سور اول - فصيل اول - سور ثان - فصيل ثان - المنطقة السكنية ٢) والممرات ذات الطاقات - فصيل ثالث - سور ثالث - الطاقات الصغرى والرحبة المركزية حيث قصر الخليفة والمسجد والدواوين وقصور الاتباع (شكل ٣٥).

ولكل من هذه الاقسام ميزته الدفاعية التي لعبت دوراً فاعلاً في حصانة المدينة.

١) فالخندق عريض (٤٠ ذراعاً) بنيت حافتاه بالاجر والجص ويأتيه الماء من نهر ٢) صرصر (فرع من نهر الفرات) ليكون اول عائق مهم يمنع العدو من التقدم والوصول الى ٣) جدران السور الاول او مداخله.

والخندق من التحصينات الدفاعية التي عرفتها مدن كثيرة قبل الاسلام وبعده فقد احيطت حصون اليمن القديمة بالخنادق وحفر النبي محمد (ﷺ) خندقاً حول يثرب لمنع المشركين من دخولها كما حفره الحجاج حول مدينة واسط. وكذلك الحال بالنسبة الى مدينة الجند ومدينة زبيد في اليمن في العصر الاسلامي وغيرها من المدن كثير.

٢) والسور الاول لمدينة بغداد المدورة ضخم تم بناؤه والفراغ من الخندق سنة ١٤٩ هـ/ ٧٧٦م مبني باللبن الكبير الحجم ومغلف في الجزء السفلي منه بالاجر والصاروج (مسناة) لوقايته من التأثر بماء الخندق وقد فتح في جداره اربعة مداخل في الاتجاهات الاربعة الرئيسة وتقابل مدناً مشهورة سميت باسمها وهي: باب الكوفة وباب البصرة وباب الشام وباب خراسان. ويوصل الى هذه الابواب بواسطة قناطر او جسور متحركة ترفع او تخفض عند الحاجة فاذا ما رفعت تعذر الوصول اليها.

وتشير المصادر الى ان ابواب السور الاول كانت ذات تخطيط فريد ومبتكر في العمارة العربية الاسلامية فهي ذات ممرات مزورّة - الباشورة (ومنكسرة) (شكل ٣٦ و٣٧) الى جهة اليسار اي ان على الداخل ان يدور بوجهه وجسمه الى جهة اليسار في دهليز (٢٠ × ٣٠ ذراعاً) معقود بالاجر والجص فيصبح بذلك مكشوفاً امام المدافعين وامام

بقى هذا المسجد على حاله حتى زمن الخليفة هارون الرشيد الذي امر بنقضه واعاده بنائه بالاجر والجص واعيد هدم المسجد وزيد في نواحيه سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٧م. وقد سجل الرشيد هذا التجديد على لوحة تضمنت اسم البناء والنجار وتاريخ البناء. ويرجح ان الرشيد صنع لهذا المسجد منبراً خشبياً متحركاً عليه اسمه وكان يحفظ في غرفة مجاورة للمحراب وبقى محفوظاً فيها الى ان اعيد استخدامه في جامع براثا عند تجديده في القرن الرابع الهجري (١٠م) كما ثبت الخطيب البغدادي ذلك.

وكانت الصلاة تؤدي في الجامع العتيق حتى زيد فيه الدار المعروفة بـ (دار القطان) في سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٣م او سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٤م إلا ان اهم زيادة تمت في المسجد كانت في سنة ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣م في زمن الخليفة المعتضد الذي اضاف اليه جزءاً من قصر المنصور ووصله به وفتح بين القصر والجامع العتيق في الجدار سبع عشرة طاقة منها الى الصحن ثلاث عشرة والى الاروقة اربع وحول المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد وصار هذا القسم يعرف بـ «الصحن الاول» لتمييزه عن الصحن العتيق (شكل ٤٣) ويستنتج هرتسفلد مما سبق ان بيت الصلاة القديم كان يحتوي على سبع عشرة بلاطة وكانت الاروقة الجانبية رواقين وقدر اساكيب بيت الصلاة الجديد خمساً كجامع الكوفة في العراق وجامع احمد بن طولون في القاهرة.

وقد اشار هرتسفلد ايضاً الى محراب كان موجوداً في جامع الخاصكي في بغداد ومحفوظ الآن في المتحف العراقي بانه عمل اصلاً لجامع المنصور.

وبقيت الصلاة تؤدى في هذا الجامع خلال القرون الخمسة من حكم الدولة العباسية وكان قائماً حين زاره ابن بطوطة سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٦م ولكنه اندثر واندرس ولم يبق له اي اثر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي (١٢ هـ) اذ لم يرد ذكره في رحلة نيبور الذي زار بغداد سنة ١١٧٩ هـ/ ١٧٦٥م.

وبالاضافة الى ما ذكر من احتياطات امنية لحماية الخليفة وحاشيته فقد بني في قصر المنصور نفق سري يؤدي خارجاً على بعد فرسخين.

بعد هذه النظرة الشاملة على تخطيط المدينة يتبين لنا ان مداخلها ورحابها وممراتها ذات الطاقات تقسمها الى اربعة ارباع بمجرد اقفال ابواب المداخل والرحاب وبذلك يمكن السيطرة على العدو في حالة اقتحامه للمدينة كما يمكن السيطرة على سكانها بسهولة في حالات الشغب والتمرد. وفي حالة اقفال ابواب الدروب فان السيطرة تكون اسهل واسرع.

كما يظهر لنا من تخطيط المدينة انها لم تكن في الاصل مدينة بالمعنى المتعارف عليه انما كانت في الواقع حصناً عظيماً ومركزاً اداريا كبيراً (دار امارة) يتكون من قصر عظيم لاقامة الخليفة تحيط به الدواوين الحكومية والجند وكل ما تحتاجه من وسائل الحماية لتأمين ادارة الدولة المترامية الاطراف في وقت تألبت فيه كل القوى المعادية للاطاحة بهذه الدولة التي لم ترسخ اسسها بعد. ولذلك جاءت المدينة في مثل هذه الظروف التي تتسم بالجدية «لا احكم بناءاً ولا احصن اسواراً منها.» بعيدة عن مظاهر التعقيد والتجميل من حدائق ونافورات ومياه وغيرها من وسائل الراحة والتي اظهرها موفد ملك الروم عند تقويمه للمدينة الجديدة. فالدخول اليها يوحي بالرهبة وبكثرة الاستعدادات الامنية بحيث يشعر الانسان كأنه يدخل قصراً اميرياً خاصاً محاطاً بالحرس وبالتحصينات ليس إلا. فهي قلعة حصينة ومعسكر مكين.

هكذا كانت بغداد وما زالت نجمة متلألئة في سماء مجد وعزة العرب وعروساً للعواصم العربية مشعة وما زالت تشع ببريق الحضارة وروائع الابداع.

المسجد الجامع في المدينة المدورة :

انشأ المنصور هذا الجامع ملاصقاً لقصر باب الذهب وقد اجمعت المصادر على انه بني باللبن والطين على شكل مربع طول ضلعه مائتي ذراع ويرجح انه كان على تخطيط مسجد الرسول محمد (ﷺ) يتكون من رواق القبلة ومجنبتين ومؤخرة، نصبت لاروقته اساطين من الخشب كل اسطوانة منها مكونة من قطعة واحدة او اكثر وصلت بالغراء وضبات الحديد. وكانت لهذا المسجد منارة على مقربة من المصلى وله محراب في جدار القبلة ومقصورة خاصة للخليفة. ويبدو ان القبلة كانت منحرفة قليلاً عن الكعبة لان بناء المسجد المتصل بالقصر جاء لاحقاً للقصر الذي كان «غير مستقيم على القبلة». (شكل ٤٢).

طاقاً عدا طاق المدخل اليها من الرحبة الذي عليه باب فردين يغلق مصنوع من خشب الساج وعرض هذا الممر خمس عشرة ذراعاً وطوله مائتي ذراع وعلى جانبيه بين الطاقات غرف». (شكل ٣٩) وقد روعي في هذه الممرات ان تكون حصينة لانها المنفذ الوحيد والرئيس الى الرحبة المركزية التي فيها القصر فكانت خالية من الفتحات إلا من كوى في سقفها يدخل منها الضوء والشمس ولا ينزل منها ماء المطر. وتنتهي هذه الطاقات في الجهة الثانية برحبة مربعة ابعادها (٢٠ × ٢٠ ذراعاً) عن يمينها وعن شمالها فصيل ثالث يدور حول السور الثالث من الخارج ويتصل بالرحبات المربعة التي في نهاية الممرات الاخرى وفي الجهة المقابلة من هذه الرحبة باب يؤدي الى احد ابواب السور الثالث والى الطاقات الصغرى التي تلي دهليز المدينة الذي يؤدي الى الرحبة الدائرة حول القصر والمسجد. والمداخل الاربعة لهذه المدينة على صورة واحدة في الابواب والفصلان والطاقات (شكل ٤٠).

وتنحصر المنطقة السكنية في المدينة بين الفصيلين الثاني والثالث وكان المنصور قد امر بالبناء في هذا الجزء لانه احصن للسور، وعمل الشوارع على ما اراد واقطع جل من يثق بهم من قوادة ومواليه قطائع داخل المدينة وكانت دروبها تنسب اليهم وموثقة من طرفيها بابواب محكمة. وفي سكة المطبق ما بين بابي الكوفة والبصرة كان يقوم الحبس المسمى بـ «المطبق». وحدد دخول الرحبة المركزية بالممرات الاربعة ذات الطاقات ورتب على كل باب من الابواب الرئيسة للمدينة مما يلي الرحاب ستوراً وحجاباً وقائداً في الف جندي وكان لا يسمح لاحد بدخولها إلا راجلاً. ولحماية المدينة من الغرباء والجواسيس نقلت الأسواق من الطاقات الى ربض الكرخ وبنى مسجداً جامعاً في الكرخ ليقلل من دخول المصلين الى المدينة المدورة.

اما السور الثالث المحيط بالرحبة المركزية فقد كان اشبه بحاجز داخلي يفصل الخليفة وخاصته عن سائر المدينة فكان اضعف الاسوار الثلاثة اذ لم يعتن بتقويته وتحصينه لان التركيز الدفاعي الرئيس كان على السورين الاول والثاني وعلى المداخل الاربعة فيهما وكان اي من سكك ودروب المنطقة السكنية لا يتصل بسور الرحبة العظمى ثم امر المنصور بسد ابواب قصور رعاياه مما يلي الرحبة وفتحها الى فصلان الطاقات.

وتؤدي الى الرحبة المركزية اربعة مداخل فتحت في السور الثالث تتناظر وابواب السورين الثاني والاول وتؤدي الى الطاقات الصغرى التي تلي دهليز المدينة المؤدي الى الرحبة الدائرة حول القصر والمسجد وفي كل صف منها ست طاقات سوى طاقي البابين (شكل ٤١).